التَّطَهُّرُ بالرَّجْمِ

حتى الشوق هاجرَ عن قلبي، وتركني وحيدًا أعرجَ النبضِ، لا أستطيع أن أتراقصَ طربًا لنورٍ أبتغيه يظهر في مُخَيِّلَتِي، أو أتذكَّر مشهدًا حميمًا وارثْه السنواتُ. أنا الآن بلا حسٍّ. لا أفرح بشيء، ولا أحزن لشيء. وعندما أنظر حولي في كل هذا السراب، لا أرى إلا أيامًا تمضي في مَلَلٍ، وأيامًا تجيء ببلاهة، كَطَلَلٍ قديم لا يتركُ لصوصُ الذاكرةِ شيئًا يَدُلُّكَ عليه، أو يبعث في قلبك إحساسًا به.

أصحو من نومي، أجد صورة نفس الشخص القديم تطالبني بأن أرشِّحه رئيسًا على هذا الخراب، وأنا لم أرَه، وإن كنت سمعتُ صوته يومًا وهو يحثُّ اللصوصَ على نهبِ كُلِّ ما تراكَمَ في ذاكرتي ودَفْنِه مع النفايات الذرية الزائرة في قاع النهر. وعندما شربتُ من الترعة التي كانت تصل إلى هنا، لم أعد أتذكَّر إلا ما تراه عيني الآن: صحراء مترامية كأنها الزمان اللانهائي، وصوتَ نحيبِ ريحٍ خافتًا لا يلفت انتباها ولا يجذب أحدًا ليستطلعَ الفجيعة.

ما هذا الذي بدأ يتسرَّب إلى رأسي؟ أحسُّ بخَدَرٍ خفيفٍ كأنني أصحو من نومٍ لم يكتملْ على صوتِ منبِّهٍ يُلْفِتُ انتباهي إلى شيءٍ ما. أحسُّ برغبةٍ مفاجِئَةٍ في التعرِّي. أخلعُ ما تبقَّى عليَّ من أَسْمَالٍ وأستحلب قطراتِ ماءٍ من هذا النَّبع الهَيِّنِ وسط الصخور.

أرفع يدي وأضع كفِّي متعامدًا على جبيني حتى أستطلع المكان، فربما رأيتُ أحدًا قادمًا. ستكون مفاجأةً رائعةً إن ظَهَر أحدٌ في هذا الامتداد الصحراوي الشاسع. لا أحد. من أين أتى هذا الإحساس إذن؟ أنا متأكِّدٌ تمامًا من قوَّتِه التي تتزايد داخلي. أنظرُ إلى نفس الصورة القديمة التي لا أرى مَنْ يجدِّد ألوانها كل حينٍ. أبصق عليها بكل ما أستطيع أن أجمِّعه من لعاب أعرف أنني لن أتمكَّن من تجميعه بسهولة إلا بمزيد من التمرين.

تبدأ الصور في التوافد على ذاكرتي وكأنني وُلِدْتُ الآن فقط. لا أعرف كم من السنوات مرَّتْ وأنا هنا بلا ذاكرة، لكن تصحُّرَ كلِّ شيءٍ حولي يقول بأنها فترة طويلة لا بدَّ. كان كل شيء أخضرَ اللون، وإن كانت خضرتُه داكنةً بعض الشيء في بعض المواضع. وكان النهر يشق هذه الصحراء.

ها أنا أتذكَّر. لم تكن صحراء أبدًا. كان كل أنواع البشر يسكنون هنا. وكانت الأصوات كثيرة ومتآلفة برغم اختلافها. وكنت أكتب العرائض والشكاوى للمظلومين وذوي الحاجة.

من الذي مزَّق أوراقي؟ لا أتذكَّر على وجه اليقين. لكنني أذكر أن أناسًا يرتدون نفس الزي انهالوا عليَّ فجأة كقطَّاع الطرق، وسرعان ما تغيَّر المنظر بأكمله، وتحوَّلت الخضرة إلى نقمة. بدأت الأشجار تأكل بعضها البعض، وتحوَّلت مياه النهر بنفاياتها الذرية وموادها المسرطنة إلى ديدان بدأت تكبر وتكبر إلى أن صارت وحوشًا كاسرة تأكل البَشَرَ والأشجارَ والجِّيَفَ.

أذكَّرُ أنَّني هربتُ إلى الجبل الذي كان قبل هذا المنظر أشجارًا سامقة، لكنَّ الجذورَ والأغصانَ تحوَّلتْ إلى صخورٍ نَهِمَةٍ سُرعان ما كبرتْ وعلتْ وصارتْ جبالًا متنافرةً. أذكر أنني هربتُ، وأذكر أيضا أنني لُمْتُ نفسي. كنتُ أرى المَنْيَ النازف في ليالي الرغبة الوحيدة يتحوَّل إلى كائنات لا ملامح لها، كائنات تظل تؤرقني طوال النهار ولا تنحسر إلا عندما يهبط الليل وتشتد الوحشة وأظل أبكي الحنين. لكنني لم أكن أعرف لأي شيء أحنُّ.

اختلط الحنين عندي بالرغبة في الخروج من هذه الوحشة. لكن الأصباغ الجديدة المسكوبة على الصورة المعلقة على الجبل، التي تدعو الخواء لأن ينتخبها، كانت تلتصق بفم الحنين فينزف دمًا بداخله وداخلي. وكان حنيني أشبه بالسَّراب، فعندما كان يشتدُّ كنتُ أرى أشجارًا هنا وهناك في الصحراء حولي، وكنت أرى وجوهًا ضبابيَّةً تبزغ فجأةً أمامَ عينيَّ، لكنها كانت تختفي أيضًا لتُرجعَني إلى الصمتِ المُطْبِقِ وعواءِ الرياح.

ريح تعوي في أذني الآن. لا أسمع أي صوت في هذه الصحراء. فقط صوتٌ في أذني كأنه يكشط ما تراكَمَ عليها. تهتزُّ رأسي فجأة وينتفضُ جسمي. هل كان عليَّ أن أنتظر كل هذه السنوات في تأمُّلٍ لا أذكر له موضوعًا محدَّدًا حتى تعود لي ذاكرتي وتطنَّ أذني بأصوات تدبُّ على مهلٍ في كياني كله؟ لكنني فرحان جدًّا. لا أدرى لماذا. كأن تشعر بمَصْدَرِ سعادةٍ لا تدركه، لكنه موجود، يمارس مفعوله معك أو عليك، يقول لك:

- أنا هنا، أنت أيضا ستكون هنا ما دمتُ معك. لا تخفْ. فقط واصلِ الإنصاتَ، استشعرِ الدفءَ.

أهلا بكَ وبي. أشعر فعلا بك وبحضورك الذي يتدرَّجُ في رأسي. نعم. نعم. لا بأس الآن. فلنفترض أنَّ كلَّ تلك السنوات التي لا أدري عددَها ذهبتْ هباءً. لا يهمُّ. المهمُّ أنني بدأتُ أشعر بي. بدأتْ ذاكرتي تحضر تدريجيًّا. لا تهمُّ أوراقي الممزَّقَة الآن. أدركُ في هذا الوقت أنني باستطاعتي أن أكتبَ آلافَ الأوراقِ، وأن أحيا ما يُعادل ملايين الأوراق. لا بأس إذن. مرحبًا بنا جميعًا. ما هذا الطوب الذي يتسابق إلى يدي في هذه الصحراء؟ إنه أمرٌ غريبٌ حقًّا. وما الغرابة في ذلك؟ إن كنتُ بدأتُ أتذكَّر كلَّ شيء، فلا غرابة إذن أن أجد طوبًا وسط هذه الصخور. تمهَّلْ يا رجل! عُدْ إلى رُشْدِكَ! اقتنصِ الدهشةَ وتمتَّعْ بها!

أذكرُ أن اللصوص الذين كانوا يعلِّقون هذه الصورة في كل مكان كانوا ينهبون كلَّ شيء بينما كان الناس ينبهرون بالأضواء الفسفورية التي تحيط بالصورة. لكنني اعتبرتُ ذلك شيئًا عاديًّا. ومن ساعتها صارتْ كل الأشياء عادية. ولم استغربْ ساعةَ سطا اللصوص أنفسهم على الأضواء نفسها لاحقًا. ومنذ ذلك الوقت، لم أستمتع بشيء قط. لا بدَّ أنَّ الاعتيادَ آفةُ الذاكرةِ والقلبِ والعقلِ. ربما كان عواءُ الرياح صراخًا في وجهي. ربما كنتُ أعتبرُه عواءً عاديًّا ولم ألتفتْ لمعناه. نعم سأقتنصُ الدهشة في كلِّ شيءٍ. لن أنظر إلى أيِّ جديدٍ على أنه عاديٌّ مرَّةً أخرى. تعالَ أيها الطوب! أنا مشتاق إليك. ارتمِ في حضن يدي كما تشاء! أنت دهشتي، وسأكون دهشتَكَ بإذن الله.

أهلا. أشعر بالحضور الطاغي. تزداد قشعريرة جسمي. أنتفضُ. أهتزُّ. لا أحتملُ كلَّ هذا. أشعر الآن بأنني طفل صغير في حضنٍ لا أستطيع أن أبلغ مداه. أنا الآن أصغر منه بكثير وأكبر من أي شيء في هذا الامتداد. أهلا بكم أنتم أيضا. يندفع الطوب إلى أياديكم مثلي! جميل. جميل. منظر أكثر من رائع حقًّا. أبتسمُ لرغبة تنبت في صحراء قلبي. هيلا هوب. توكَّلنا على الله. آخذُ الطوبَ بقوَّةٍ. تتجه يدي إلى ذلك الوجه القديم. ما أبشعه! كيف كان الناس ينظرون مبهورين إليه ويتركون اللصوص يسرقون كل شيء؟ خذْ هذه!

الرجمة تُنْبِتُ رغبةً أكبرَ، والرغبةُ تُوقِدُ الرَّجمَ. يمتلئ قلبي بالرغبات. لكلِّ فعلٍ ردُّ فعلٍ، ما أجملها من مقولة! يملأ الرجمُ قلبي وذاكرتي بأشياءٍ تُدهشني، لا أستطيع أن أصِفَها الآن. ربما بعد أن أتأملها لاحقًا أستطيع أن أتوصَّلَ إلى كَنْهِهَا أو ملامِحِها.

تتفتَّحُ الخضرةُ حولي. تندهش ذاكرتي من حضورها أمام نفسها بكامل تألُّقِها وعنفوانِها. تتلوَّن الصورُ القديمةُ، وتبرز صورٌ جديدةٌ كأنها أخذتْ من كلِّ نوعٍ في ذاكرتي زوجينِ. ليستِ الخضرة وحدها هي التي تعود، فالنهر رجع أيضا، لكنه نهر كالبحر، جميل أنني أحسُّ به، والأجمل أنه يمتد أمامي كالحياة، هكذا الدهشة، هكذا السفن، سفينةٌ ليستْ حتى كمثل السفنِ التي في الأحلام، ما هذا؟ أأنا أرقص الآن؟ أراقص نفسي وأراقص الوجوه التي تستوي على وجه الماء كالسفن! شيء مدهش أن يذهب العَرَجُ هكذا! هيا يا رفاقي! السفينة تنادينا. توكَّلنا على الله.

٢٧-٢٩ مارس ٢٠١٠